الطريق إلى وحدة الأمة الإسلامية
سيد أبو الأعلى المودودي

تعريب: سمير عبد الحميد إبراهيم

(أ) تمهيد[1]:

إن الفكر الإسلامي في شبه القارة يتميز بالجمع بين الأصالة والمعاصرة. وإن تعايش المسلمين مع غير المسلمين في الهند قرونا طوالا جعل هذا الفكر قادرا على مواجهة التحديات وعلى صياغة مواقف إسلامية محكمة من هذه التحديات. فعلماء الإسلام طالما عالجوا قضايا فكرية وحضارية من جرّاء تعايشهم مع غير المسلمين أحقابا فشمّروا عن ساعد الجد كلما طرحت أسئلة جديدة أمامهم فجاءوا بإجابات مبدعة مقنعة من مصادر الدين الإسلامي فأدّوا شهادة الحق على أحسن وجه وأمثل طريق. وتمكنوا بذلك من حماية الكيان الإسلامي الحضاري المستقل في وجه الأغلبية الهندية من غير المسلمين. وحينما جاء الاحتلال الاستعماري بتحديات جديدة صمد لها قادة المسلمين السياسيون والفكريون بنفس اليقين والاعتماد على الذات. فلم يغمضوا أعينهم عن التطورات الجديدة في الفكر الإنساني بل واجهوها وعالجوها وطرحوا على ساحة الفكر آراءهم وتحليلاتهم النقدية البناءة للتصورات الحديثة من العلمانية والليبرالية والقومية. وقد ظهر في بلاد الهند في القرن العشرين عباقرة أعلام قادوا الفكر الإسلامي إلى مواقف واضحة من التشكيلات الفكرية والأنماط الحضارية الجديدة التي استولت على الأذهان والأزمان من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب.

ومن الأفكار السياسية التي تولّدت في أوروبا بعد أن تلاشى النظام القديم القائم على تحالف بين الملكية والكهنوت، فكرة القومية التي قامت على أساس تقسيم العالم إلى دول ذات سيادة مطلقة

1- كاتب السطور التمهيدية: محمد الغزالي، رئيس تحرير **الدراسات الإسلامية**.

متصارعة متصادمة فيما بينها. وقد نشأت فكرة القوميات المتصارعة من افتراض التصارع القائم بين أفراد الجنس البشري المستند إلى نظرية "تنازع للبقاء" والمبنية على مبدأ "البقاء للأصلح" التي طرحها چارلس ڤارون في القرن السادس عشر الميلادي. فكما أن الأفراد متصارعون بحكم القانون الطبيعي لأجل البقاء وانتزاع المصالح لأنفسهم ـ على حد قول ڤارون ـ فكذلك المجتمعات والأمم والملل والنحل تخوض بالضرورة معركة دائمة للبقاء، وتتنافس فيما بينها لأجل الحصول على أكبر قدر من الفوائد المادية وذلك من خلال التغلب على كل من كان ضعيفا من الأفراد والمجتمعات والدول. وهذا الفكر الداروينى وفّر الأساس الذي بنى عليه المفكرون السياسيون أمثال هوبس ولوك وغيرهما نظريات سياسية واضحة تبرّر تقسيم العالم الإنساني إلى قوميات مستقلة منفصلة تتنافس للغلبة وتسخير الموارد واستعمار الأرض واستعباد البشر لتحقيق أكبر مصلحة ذاتية للقوم على حساب سائر البشر. وقد خرجت من هذه النظرية السياسية نتائج فظيعة للإنسانية من حروب وخراب ودمار على نطاق لم يسبق له نظير في التاريخ الإنساني.

والعالم الإسلامي بالأخص صار أكبر عرضة لهذه الأفكار المدمرة فاجتاحه القوى الاستعمارية الغربية من البرتغاليين والهولنديين والاسبان والطليان والفرنسيين والإنجليز واحدة تلو الأخرى وتمكنت هذه القوى الغربية من فرض حكمها الغاشم على أجزاء واسعة من العالم الإسلامي من اندونيسيا إلى المغرب.

ومما يزيد النفس اعتزازا هو أننا نرى علماء الإسلام في شبه القارة الهندية الباكستانية قبل غيرها من أجزاء العالم الإسلامي المستعمرة قد أدركوا خطورة هذه النظرية المعادية للإسلام وكذلك للسلام والعدل بين الناس ووجّهوا نقدا علميا قويا نحو هذه الفكرة المنبثقة من الفكر الداروينى الطاغي على تصور الإله والورائيات في هذا الكون والوجود الإنساني. كما تناول علماء شبه القارة التيارات الفكرية الأخرى الموازية لنظرية القومية وكشفوا بتحليلات عميقة مدى عدائها لمقاصد الإنسانية المشتركة وخطورتها على وحدة الأمة الإسلامية بالأخص. وقد قاموا بهذا الجهاد الفكري حينما كان يجتاح العالم الإسلامي نفسه تيّار قومي قوي جعل العالم الإسلامي عروة عروة ومهّد السبيل إلى تقسيم الأمة المحمدية إلى دويلات صغيرة لا تحسب لها حساب في موازين القوى العالمية، واستمرّ أكثر بلاد العالم الإسلامي تحت نيّر الاستعمار فكرا وسلوكا وسياسة حقبة من الزمن حتى تمزّقت وحدة هذه الأمة تماما بإلغاء الخلافة في تركيا باسم ذات النظرية القومية.

أما علماء شبه القارة فكانوا على حذر وبأعلى درجة من الوعي والشعور بالذات فلم يألوا جهدا في توجيه النقد على الأفكار المستوردة من الغرب بالرغم من غلبة الاستعمار البريطاني على الهند وعلى

أجزاء واسعة في العالم حتى قيل أن "الشمس لا تغرب في حدود السلطة البريطانية". وكان جهاد علماء الإسلام في الهند ـ والذي كان ماضيا منذ ألف عام في ساحات العلوم والأفكار والحضارة والثقافة إلى جانب ساحات القتال ـ موفقا للغاية حيث أدى كفاحهم السياسي السلمي إلى إنشاء دولة مستقلة ـ لا باسم القومية الليبرالية ـ بل باسم الإسلام والأساس الإسلامي للدولة والمجتمع.

وممن أسهم من علماء الإسلام في هذا الجهاد الفكري ضد النظرية القومية بالأخص، شاعر الإسلام محمد إقبال (1938م) والشيخ أشرف علي التهانوي (1943م) والشيخ أبو الأعلى المودودي (1979م) رحمهم الله جميعا، وكان الشيخ المودودي أسس جماعته الإسلامية في عام 1941م للكفاح من أجل إقامة الحكومة الإلهية بمدينة پٹهان كوٹ في پنجاب الشرقية (الواقعة الآن في الهند). ثم انتقل الشيخ رحمه الله بجماعته إلى باكستان عند استقلالها في 1947م. وواصل عمله السياسي وجهاده الفكري حتى عام 1979م حين توفاه الله.

ونظرًا لمكانة هذا الرجل العظيم من رجال الفكر الإسلامي المعاصر وإسهامه القوي في بلورة فكرة الدولة الإسلامية الحديثة المتميزة عن النمط القومي العلماني الرائج، رأينا نشر مقال له صدر من قلمه في السبعينات حينما كان حكام المسلمين يحاولون إنشاء مؤسسة تجمع الحكومات في الدول المسلمة على منبر واحد وكان المرحوم الملك فيصل يتولى زعامة هذه الحركة التي أثمرت في صورة منظمة المؤتمر الإسلامي. وإليكم مقال الأستاذ أبي الأعلى المودودي في الصفحات الآتية، ونقله إلى العربية الأستاذ الفاضل سمير عبد الحميد إبراهيم من مصر الشقيقة:

(ب) "عالم إنساني:

سيطرت النظرية القومية ـ كنظرية اجتماعية ـ على العالم في مطلع هذا القرن، ولم يعد الناس يتصورون الحياة الاجتماعية إلا من خلال أمة مستقلة بذاتها، وسعى كل فرد إلى تصنيف أفراد الأمم الأخرى في درجة أدنى مما هو عليه، وبذل كل فرد جهده وطاقاته ليجعل قومه وأمته في درجة أسمى وأرفع من جميع الأمم الأخرى واعتقد الناس أن ذروة ازدهار الحياة الاجتماعية تتجسد في وجود الدولة داخل إطار القومية واتخذ هذا الاعتقاد مكانة الإله لدى الناس، وتكبد العالم للمرة الأولى خسائر فادحة من جراء هذه الفكرة اتضحت أثناء الحرب العالمية الأولى التي نشبت عام 1914م حين نشط المتحمسون لقومياتهم لنصرة قومياتهم أو أمتهم على الأمم الأخرى مؤمنين بأن هذه هي الغاية السامية في الحياة، واتخذ هؤلاء من فكرة القومية معبودًا لهم وإلهًا يقدمون له قرابين عديدة وكأنهم بهذا يقدمون أعظم الخدمات

الإنسانية.

وأنتجت هذه النزعة القومية علاقات بين دول العالم بلغت حدًا من السوء والقسوة لم تصل إليه وحوش الغابة، فقد استمرت الحرب العالمية الأولى من عام 1914م حتى عام 1918م دمرت خلالها المدن بأكملها وأبيدت جماعات بتمامها وتحطمت أثناءها القيم والأخلاق وكل معاني الإنسانية والبشرية. وبدأ العالم يتجه بعد أن عانى وقاسى نتاج نظرية القومية إلى إيجاد نوع من الوحدة بين الأمم تتخلى فيه كل أمة أو كل قومية عن جزء من سيادتها المطلقة أو بمعنى آخر عن بعض كبريائها وغطرستها واحتقارها للأمم الأخرى، وقيام سلطة شبه مركزية تتولى وضع حد للحرب بين الأمم وتسعى إلى المصالحة بينها. وهكذا أسست "عصبة الأمم" التي أثبتت فشلها وعجزها في لحظة مولدها وقد عبر عن هذا شاعر الإسلام المفكر محمد إقبال بقوله: "أقام نبّاشو القبور فيما بينهم تحالفًا لتوزيع القبور" فقد بدأت عصبة الأمم عملها بتقسيم الدول وتمزيقها.

وإن كان لعصبة الأمم عمل في العالم فقد تمثل هذا العمل في الخطة الدنيئة التي هدفت إلى سيطرة الشعوب القوية على الشعوب الضعيفة والمستضعفة وذلك عن طريق وضعها تحت الانتداب أو تحت وصاية الدول الكبرى أو حمايتها أو إلى غير ذلك من مصطلحات استعمارية خبيثة هدفت في جملتها إلى استعباد واستغلال الشعوب القوية للشعوب الضعيفة وكان ملخص ما تقوم به عصبة الأمم هو ألّا تشنَّ حرب ولا يحدث قتال من أجل السيطرة على شعب من الشعوب بل إن عصبة الأمم سوف تقوم بتقديم هذا الشعب أو هذه الأمة هدية للدول الكبرى دون حرب أو قتال.

وكان هذا هو المنطلق وكانت تلك هي الفترة التي برزت خلالها فكرة جعل فلسطين وطنًا قوميًا لليهود وبدأ العمل من أجل استجلاب اليهود من دول العالم المختلفة إلى تلك البقعة التي لم تكن خالية أبدًا بل كان بها سكانها العرب يعيشون فيها منذ قرون متتالية. لقد كان هذا هو سبيل عصبة الأمم لمنع حدوث التصادم بين الدول الكبرى وهو يمثل تحالفًا بينها على حساب الشعوب الصغيرة المستضعفة. وكأن الإنسان لم يخرج بأية فائدة من تجارب الحرب العالمية المريرة بل قدم أهل الفكر مجموعة من الآراء والحلول استخدمت لخداع الإنسانية ودفعها إلى متاهات الضلال. لقد تظاهر أنصار فكرة القومية بأنهم يريدون وحدة الأمم ولكن رواسب النزعة القومية كانت لا تزال بداخلهم وهي رواسب كوّنتها العنصرية والعدوانية ومن هنا كانت مخططاتهم السياسية التي تمثلت في السيطرة على الشعوب الصغيرة واستنفاد خيراتها من أجل الأمم القوية.

استمر نهب وسلب حقوق الأمم الضعيفة لأكثر من عشرين عاما وذلك باسم الأمن والسلام، ونبتت بذور الفرقة والشقاق وعمت الفتن جميع أنحاء العالم وانطلقت مصانع السلاح تعد أدوات الدمار والتخريب مما مهد للحرب العالمية الثانية التي جاءت أشد دمارًا وأكثر ضراوة من مثيلتها السابقة ومات الآلاف من البشر ودمرت المدن وطردت شعوب بتمامها من بلادها الأم لتهيم على وجهها على سطح الأرض وتحولت بلاد أخرى إلى معسكرات للأسرى وانطلق الإنسان بكل قسوة وضراوة يحطم القيم الأخلاقية بلا وازع من ضمير أو رادع من قانون يقتل أخاه الإنسان ويسخر من إنسانيته بطريقة فاقت همجية رجال الغابة البدائيين.

وانتهت الحرب العالمية الثانية واستبشرت البشرية خيرًا بتأسيس هيئة الأمم المتحدة لتحقيق العدل ووضع ميثاق للحقوق الإنسانية وشكلت الدول "مجلس الأمن" للحفاظ على السلام العالمي، وأنا على يقين من أنكم تدركون جيدًا حقيقة السلام الذي ينشده مجلس الأمن والذي يدعي المحافظة عليه وذلك على ضوء تجاربنا وموقفه منا في الفترات الماضية أثناء العدوان الهندي على بلادنا (باكستان)، لقد أصبحت قرارته حول قضية كشمير من المضحكات المبكيات، كما أصدر على مرأى منه وعلى مسمع أهل فلسطين قرارًا بإخراجهم من ديارهم ظلمًا وعدوانًا، واستوطنها أولئك الذين جلبوا من أماكن شتى من العالم، وكذلك الأمة التركية في قبرص مهددة بالإبادة كما أن الإنسانية لا تزال تعاني وتقاسي في روديسيا وأنجولا وأفريقيا الجنوبية وفيتنام وأماكن أخرى من العالم تئن تحت وطأة الآلام والكوارث، ومجلس الأمن يقف من كل هذا موقف المتفرج وأحيانًا موقف المواسي[2].

أما عن ميثاق حقوق الإنسان فلم تعد هناك دولة حتى الآن تتقيد بنصوصه أو أحكامه ولم تقبل أية دولة في العالم إعطاءه مكانه اللائق ضمن قوانينها كما أنه لم تظهر أية هيئة يمكن الرجوع إليها في حالة الاعتداء على حقوق الأفراد أو الجماعات أو الأمم.

ودفعت كل الأسباب السابقة العالم إلى اليأس من دور هذه الهيئات الدولية التي أسست للمحافظة على الأمن والسلام وبدأ مفكرو العالم يعلنون أن عبادة صنم القومية هو مصدر النكبات التي تجتاح البشرية، وأعلن هؤلاء المفكرون أن قيام عالم إنساني يتمتع فيه البشر بحقوقهم بدرجة متساوية هو السبيل إلى تحقيق الأمن والسلام وأن فكرة القومية المتعصبة التي هي مصدر الكوارث لا بد أن تنتهي

2- إن هذه القضايا كانت قائمة عند كتابة هذا المقال.

وتحل محلها فكرة الدولة العالمية التي تتمتع داخلها الشعوب المختلفة بنوع من الاستقلال الداخلي مع إقامة حدود معنوية تصون لهذه الدولة حضارتها وديانتها ولغتها شريطة ألا تعيش هذه الشعوب عيشة "الكبش" الذي يستعد دائمًا لمناطحة أقرانه. بل تكون سلطة تقوم بإصلاح ما يفسد من أمور وما يسوء من علاقات بين شعوب هذه الدولة وتعطى لكل شعب حقوقه بالعدل والقسطاس.

ولكن ألا ترون أن هذه الفكرة مجرد خيال ... لا تتعدى كونها حلمًا وأمنية ...؟

إن القضية الحقيقية هي: هل لدى المجتمع الإنساني نظرية يقيم على أساسها الدولة العالمية المنشودة ...؟

هل تصلح المسيحية أساسًا للدولة العالمية؟

وأنا قبل كل شيء أعتذر للإخوة المسيحيين فيما يتعلق بهذا، إلا أن الحقيقة لا تتغير ولا يمكن أن نغمض أعيننا عنها ولهذا أقول بصراحة: إن المسيحية لم تقدم أي أساس أو أية توجيهات يمكن على أساسها إنشاء دولة عادية فما بالنا بأسس إنشاء الدولة العالمية ـ فالمسيحية تنازلت لقيصر عن أمور الحكم وإدارة الدولة منذ قرون، ومما لا شك فيه أن المسيحية وجهت عنايتها إلى فكرة توحيد البشر أو جمع شمل البشرية إلا أنها لم توفق في الوصول إلى هدفها بقليل أو كثير. ولكم أن تشاهدوا مواقف المسيحية في أمريكا اليوم حيث يعيش السود الأمريكان بأغلبية، فهم سكان سود يعتنقون نفس الديانة التي يعتنقها البيض الأمريكان إلا أنهم ورغم مشاركتهم للبيض في الحضارة والتقاليد "والدين" لا يستطيعون الاجتماع داخل كنيسة واحدة. ولا يمكنهم الجلوس على مقعد واحد جنبًا إلى جنب، ولا يمكنهم أيضًا تناول الطعام بمطعم واحد أو ركوب أتوبيس واحد، وإذا انتقلت الأسرة الزنجية إلى حي البيض يطلق عليها الرصاص وإذا أراد أولاد السود أن يتعلموا في مدارس البيض تكسر أيديهم وأرجلهم، وهكذا الحال في جنوب أفريقيا إن لم يكن أشد ضراوة وقسوة ووحشية. ولا يخفى على أحد كيف تعامل الأقلية البيضاء سكان جنوب أفريقيا الأصليين الذين يدينون بالمسيحية أيضًا. ومن العجيب بل من أغرب الغرائب أن توجد صورة للمسيح باللون الأسود داخل كنيسة المسيحيين السود وصورة باللون الأبيض داخل الكنيسة التي تخص البيض من المسيحيين أي أنهم أوجدوا للمسيح عليه السلام شخصيتين: مسيح السود ومسيح البيض، ومن الواضح تماما أن مثل هذا الدين لا يمكن أبدًا بل لا يصلح أبدًا ليكون أساسًا للدولة

العالمية[3].

والديانة البوذية، هل تصلح لتكون أساسًا للدولة العالمية أو التضامن الإنساني؟ كلا، إن موقف البوذية من الدنيا ومن الدولة أبعد ما يكون مما هو في المسيحية، ولو راجعتم مصادر البوذية فلن تجدوا فيها ما يرشد الإنسان إلى تصريف أموره الاجتماعية. وكل ما فيها من تعاليم يهدف إلى إنقاذ الإنسان مما تورط فيه من أوحال الحياة الدنيا وإلى تحرير الروح الإنسانية من الهيكل المادي الذي يحتويها صدفة، والبوذية في هذا لم تأت بشيء يرشد الإنسان في حياته الاجتماعية بل العكس من ذلك تدعو الإنسان إلى الفرار والهروب من الحياة ومن أمور الدنيا وترشده في نفس الوقت إلى طريقة التخلص من سجن الجسد البشري وهذا دليل واضح على أن هذا الدين لا يصلح ليكون أساسًا للدولة العالمية أو للمجتمع العالمي.

وماذا عن الديانة الهندوكية؟ هل تصلح هذه الديانة لتكون أساسًا للوحدة الإنسانية؟ لا وألف لا، فالديانة الهندوسية تقسم الإنسانية وتمزقها بدلا من أن تجمعها وتوحدها، بل حازت قصب السبق في هذا المجال وفاقت جميع النظم والنظريات الأخرى، إنكم تجدون أمثلة عديدة من ألوان التعذيب والتنكيل التي ينزلها الفاتحون الغزاة بالشعوب المغلوبة والمنهزمة ولكنكم لن تجدوا في تاريخ البشرية مثالاً واحدًا لقوم يهجمون على بلد فيفتحوه ثم يحولوا سكانه الأصليين إلى منبوذين يقومون بتنظيف المراحيض، لا يمسهم أحد فهم أنجاس بالمولد ويلقى في روع الناشئة منهم أنهم لا يعانون كل هذا إلا نتيجة لأعمالهم التي ارتكبوها في حياتهم الماضية وهذا طبقًا لعقيدتهم الدينية الممثلة في "التناسخ" والتي تفرض عليهم حصارًا رهيبًا طوال حياتهم فليس بمقدور أحد من البشر أن ينقذهم من هذه الحياة الذليلة الوضيعة التي تعتبر قدرهم إلى الأبد.

إن الأمة الآرية هي الأمة الوحيدة ـ في تاريخ البشرية ـ التي غزت الهند وعاملت سكانها المنهزمين المعاملة التي سبق وأشرنا إليها، وقد طبقت فلسفتها الرامية إلى التفريق بين أفراد الجنس البشري تطبيقًا عمليًا ففرقت بين الإنسان وأخيه وفضلت هذا الجنس على ذلك الجنس فجعلت المجتمع طبقات متفاوتة ولسنا بحاجة إلى مراجعة كتابها المقدس دهارما شاستار الذي ألفه "مانو" عن التفرقة العنصرية والتفوق الآري بل تستطيعون لمس هذا المجتمع الهندوكي في أي وقت. وقد بلغ جنون

3 – هذه الحقائق تشير إلى واقع الحياة في أمريكا وجنوب أفريقيا في الماضي ومع تغيير سطحي في مظاهر التمييز إلا أن سياسة سيطرة البيض لا زالت موجودة كعامل قوي في سير الأمور في بلاد الغرب بصورة عامة.

التفرقة العنصرية مداه في جنوب الهند فإذا مرض أحد المنبوذين وتولى علاجه أحد أطباء البراهمة فإنه يقف على بعد يصل إلى أربعين قدمًا من المريض وتوضع بينهما قطعة من الآجر يخاطبها المريض فيرد الطبيب مخاطبًا قطعة الآجر هذه وتختلف المسافات باختلاف درجات المنبوذين ويعتبر الطبيب منبوذًا إذا جاوز المسافة المقررة أي يعتبر الطبيب نجسًا. فكيف إذًا يمكن لهذا النظام وهؤلاء البشر وهذه الفلسفة العوجاء أن تشكل مجتمعًا متحضرًا يصلح للحياة الإنسانية؟ لا يمكن مثل هذا المجتمع بفلسفته وعقيدته أن يجمع البشر معًا على صعيد واحد فهو بطبعه يخضع لفلسفة تدعو في أساسها إلى التمزيق والتفريق بدلا من التأليف والتوحيد.

ومن أعجب ما في الديانة الهندوسية أن الهندوكي الذي يسافر بالبحر يصبح آثمًا خارجًا عن ديانته ومن أمثلة ذلك أن "الباندیت مدن موهان" وهو من مثقفي الهنادكة وزعمائهم عاد إلى بلاده من لندن بعد حضور مؤتمر المائدة المستديرة بالبحر ومن هنا اضطر إلى تقديم القرابين والكفارات حتى يتطهر مما أصابه من رجس ويتطهر من نجاسته بسبب سفره على ظهر سفينة بالبحر وهذا محرم في شريعة البراهمة. وبعد كل هذا هل يمكن لأحد التصريح أو القول بأن هذه الفلسفة تصلح لأن تكون أساسًا لعالم إنساني واحد؟

وهكذا لا تستطيع الحضارة الغربية أن تشكل العالم الإنساني المنشود، أليست هي الحضارة التي أثارت فتنة القومية بين شعوب العالم؟ وهي التي أصابت الناس بأمراض التعصب القومي وأحلت فكرة "الدول القومية" محل "الإله" وهي التي تنادي بأن الهدف الأسمى والغاية العظمى لجهود الإنسان في الدنيا تتمثل في رفع مستوى المعيشة والرفاهية المادية البحتة فجعلت أفراد كل مجتمع يتصارعون فيما بينهم، وجعلت طبقات كل مجتمع تتناحر فيما بينها ودعت كل أمة لتنافس الأخرى للوصول إلى هدف الحياة بالمفهوم الغربي حتى تحصل على نصيب الأسد من الثروات المادية.

ولا تستطيع هذه الحضارة أن تقدم فلسفة ما أو فكرة ما من شأنها أن تؤلف بين الناس وتصلح أحوالهم الداخلية، وتمهد الطريق إلى التعاون الدولي والسلام العالمي، وتجنب الإنسانية مصائب الحرب، فهذه الحضارة لا تعرف إلا الفرقة والفتن والاضطراب ولا ترفض إلا الوحدة والأمن، ففي ظل هذه الحضارة بدأ الإنسان "المتحضر" يفترس أخاه الإنسان، يدفعه في هذا غرائزه الحيوانية، وفي ظل هذه الحضارة ذاتها اتجه أهل الغرب إلى أمريكا فقضوا على الهنود الحمر، السكان الأصليين للبلاد، قضاء تامًا، واستولوا على بلادهم ووصلوا أفريقيا، فاستعبدوا واسترقوا أكثر من مليون إنسان من سكانها، وحملوهم

قسرًا إلى المستعمرات يستخدمونهم في أعمال لا يقوم بها إلا الحيوانات، ثم اخترعوا بعد ذلك، وفي أوائل القرن الماضي، فلسفة عجيبة أعطتهم الحق في ارتكاب الفظائع من الأعمال. فطبقًا لهذه الفلسفة ليس العلم إلا ميدان صراع يسوده مبدأ "الصراع من أجل البقاء"، وبعبارة أخرى ترى هذه الفلسفة أن العلم يقوم على التناحر والتقاتل وليس على الوفاق والوئام، كما أن الطبيعة تسمح فقط للأصلح في أن يبقى، ولا تعطي مكانًا للضعفاء بين الأقوياء ومذهب "البقاء للأصلح" مذهب مادي طبيعي، وطبقًا لهذا المذهب لا يعيش إلا من يصلح للبقاء طبقًا لهذا المذهب، ويكون فناء الضعيف وبقاء القوي هو سنة الطبيعة أو كما يقولون هو "الانتخاب الطبيعي".

وفي ظل هذه الفلسفة العجيبة، والقانون الغريب، رأى أهل الحضارة الغربية أن من حقهم أن يبيدوا الأمم الضعيفة، وأن يستولوا على أراضيها، ويذلوا أهلها، ويطردونهم من ديارهم فهم بهذا يثبتون جدارتهم وتفوقهم ويطبقون قانونهم وفلسفتهم القائلة بأن البقاء للأصلح "أو البقاء للأقوى" وأتباع الحضارة الغربية لا يعتبرون ما يرتكبون من جرائم وفظائع ظلمًا، بل يرون أنه حق وعدل تمثله القوانين الطبيعية، ويرون أن السموات والأرضين قائمة أيضًا على هذا الأسلوب الذي يسمونه "عدلا" وقد أماتت هذه الفلسفة إحساس الآريين تجاه المظالم التي اقترفوها ضد الهنود الحمر في أمريكا من نهب وسلب وقتل واستيلاء على الممتلكات الخاصة.

طبقًا لهذه الفلسفة ارتفعت بعض الأصوات تحاول إقناع العالم بأن عرب فلسطين لم يؤدوا واجبهم في سبيل تطوير فلسطين، ومن هنا فإن طرد العرب من فلسطين بقسوة ووحشية، واستقدام اليهود من أنحاء العالم لاحتلال فلسطين ليس ظلما أو اغتصابا أو عدوانا، وإنما هو من مستلزمات الفطرة الطبيعية، وهذا هو المنطق الذي تلجأ إليه أوروبا وأمريكا لإثبات شرعية الدولة الصهيونية.

والتساؤل الذي يفرض نفسه مرة ثانية هو، هل تصلح هذه الفلسفة الهدامة لأن تكون أساسًا لوحدة العالم الإنساني والتضامن العالمي؟

أما الماركسية التي اختارها البعض ليقيم على أساس فلسفتها النظام العالمي، فالتساؤل الذي نطرحه هنا بالنسبة لها هو هل تصلح الماركسية لحل مشاكل العالم؟ هل يمكن للفلسفة الماركسية إقامة مجتمع عالمي؟ لعلها تستطيع توحيد البشرية ولكن بعد أن تقيم على سطح الأرض طبقة واحدة طبقا لنظريتها التي تتبناها، ولا يمكن للماركسية أن تحقق هذه الغاية إلا بعد أن تغرق الدنيا في بحر من النيران والدماء، فالأسلوب الذي تدعو إليه الماركسية للوصول إلى أهدافها هو إثارة الصراع

الطبقي في العالم واستغلال هذا الصراع من أجل القتل والتخريب والسلب والنهب والاغتصاب وإثارة الاضطرابات الدامية، ثم إقامة النظام الديكتاتوري المستبد في النهاية باسم ما يسمونه بالطبقة الكادحة، وعليه تتم إبادة ملاك الأرض، وأصحاب المصانع بعد نزع ممتلكاتهم وملكاتهم، وتشتيتهم في سبيل القضاء عليهم بطريقة أو بأخرى. وبعد كل هذا تمنّي الماركسية تابعيها بالجنة الأرضية والتي يقال أنها تضم طبقة واحدة تسودها المساواة. ولم تظهر هذه الجنة بعد، حتى في روسيا والصين. ولا يدري أحد مدى الدمار والخراب الذي يلزم لإكمال هذه العملية التي تليها بعد ذلك مرحلة البناء والإصلاح. ولا يدري أحد كم من الوقت يلزم لاستكمال ما تنشده الماركسية من البناء، ولا نتوقع أن يتم هذا إلا بعد مرور عشرات الأجيال القادمة وبعد قيامها بعمليات من القمع والقلع تمهد بها للقضاء على المجتمع كلية حتى لا يبقى منه سوى الطبقة التي تدور في تلك النظرية الماركسية والتي تقوم بصراع كل من يرفع رأسه ضد ظلم ما أو قهر ما، أما الجيل الحاضر فلا يمكن أن ينال الأمن والسلام من قبل الماركسية في الوقت الحالي.

الإسلام والعالم الإنساني:

لا أبالغ حينما أقول أنه لا توجد نظرية، قديمًا أو حديثًا توحِّد ما بين الناس وتضم شمل العالم الإنساني وتصلح أساسًا لدولة إنسانية عالمية إلا نظرية الإسلام والإسلام فقط، فالإسلام هو الدين الوحيد الذي يعتبر الإنسانية جمعاء أسرة واحدة، وهو الدين الذي يعلن للناس جميعًا أنهم من أم واحدة وأب واحد ژﭺ ﭻ ﭼ ﭽ ﭾ ﭿ ژ[4]، وأن خالق الناس جعلهم شعوبًا وقبائل من أجل التعارف والتعاون لا التخاصم والتناحر والعدوان ژﭸ ﭹ ﭺ ژ[5]، وانقسام الناس إلى أمم وإلى قبائل وإلى أسر أمر طبيعي، فمن الواضح أن كل إنسان ينتمي إلى أسرة ولد فيها وأفراد أسرته هم أقرب الناس إليه، يعرفهم قبل غيرهم، ويلي هذه الأسر التي تقيم في منطقة واحدة أو بلد أو بلدة واحدة.

فمن السهل التعارف منها عن تلك التي تقيم أو تسكن في أحياء أخرى أو مدن أخرى، ونفس المبدأ ينطبق على مجموعات الأسر التي تتكون منها الأمة، وهذا هو أسلوب الفطرة في الترابط والتضامن ومن هنا جعلهم الخالق شعوبًا وقبائل، فالهدف من التقسيم هو وضع أساس للتعارف والتكامل فيما بينهم، وليس المقصود أن يستذل الناس بعضهم بعضًا، ويصرع أحدهم الآخر مما يدفع إلى إثارة الصراع

4- سورة الحجرات، الآية: 13.

5- المرجع السابق.

البغيض بين الشعوب، ويشيع الفساد والظلم بين الناس وأساس الفضيلة والصلاح في الإسلام لا يتمثل في ولادة رجل داخل أسرة بعينها أو انتمائه إلى جنس معين أو أمة معينة بل يتمثل في سموه الأخلاقي وطهارته من شوائب النفس ﮋ ﭼ ﮢ ﮢ ﮣ ﮣﮌ[6]، هذه هي الفكرة الإنسانية التي يمكن أن تجمع بين الناس وتوحد بينهم وتجعل منهم عائلة واحدة فيتكون منها المجتمع الإنساني العالمي الذي يقيم الدولة العالمية إذ لا يمكن لإنسان أن يعيش مع إنسان آخر ويقيم معه علاقات أخوية إلا حينما يشعر بأن الله هو خالقه وبأنه مسؤول أمام الله عن أعماله، وبأن الله الذي خلقه خلق بالطبع جميع الناس، فربه هو ربهم، خلقه الله وخلقهم من مادة بعينها، يجري في عروقه وعروقهم دم واحد، لا فضل له عليهم، ولا فضل لواحد منهم على الآخر لأنه ولد من نطفة رجل بعينه أو من بطن امرأة بعينها، بل الفضل يرجع إلى سلوك الإنسان في حياته، ويرجع إلى أخلاقه وأعماله، فمن يتحلى بالأخلاق الحسنة، ويعمل صالحًا يستحق التقدير والإكبار سواء ولد في الشرق أم في الغرب ومن يتصف بسوء الخلق ويرتكب الأعمال السيئة يكون أقل درجة وأدنى مكانة ولا فرق في هذا بين الأبيض والأسود والأصفر والأحمر وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته في حجة الوداع إلى هذا المبدأ حيث قال صلى الله عليه وسلم: "لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى، كلكم من آدم وآدم من تراب ... إن أكرمكم عند الله أتقاكم"[7].

لم يقدم الإسلام هذا المبدأ للناس على أنه نظرية مجردة أو فلسفة محضة بل أقام الإسلام على أساسه مجتمعًا حيًا ساوى فيه بين جميع الناس في مختلف البلدان ومن مختلف الأجناس وأزال من هذا المجتمع كل معالم التمييز العنصري سواء على أساس اللون أو اللغة أو الجنس وقضى على الفوارق الاجتماعية داخل المجتمع وحفظ لكل فرد احترامه مادام يحترم الآخرين وهكذا أصبح الناس يلتقون جميعًا داخل مسجد واحد متراحمين متكافئين يأكلون على مائدة واحدة، يتزاوجون فيما بينهم، ضمتهم مساواة طبقت فيما بينهم ما يتعلق بالواجبات والحقوق وضمهم عدل جعل ألد أعداء الإسلام يعترف قائلا بأن الإسلام هو النظام الوحيد الذي نجح في القضاء على أسباب الفرقة بين الناس وعلى التمييز العنصري كما نجح في تشكيل مجتمع عالمي ضم شعوبًا و أجناسا مختلفة. كل هذا بفضل الإسلام ـ العقيدة الشاملة ـ، وبفضل قيادة رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم الحكيمة الموهوبة، وبفضل تعاليم

6- المرجع السابق.

7- عبد الملك ابن هشام، **السيرة النبوية**، المكتبة الفاروقية، ملتان، باكستان، 1397هـ، ص 352.

القرآن الكريم الفاضلة، فقد صهر الإسلام الجنس البشري على اختلاف ألوانه ولغاته وبلدانه في بوتقة واحدة ليصبح أمة واحدة بكل ما تعنيه الكلمة. ولقد أقام الإسلام بالفعل دولة عالمية على أساس العقيدة الخالدة، وحين اتسعت رقعة الإسلام، وتعدت معظم مناطق العالم في عصر الخلافة الراشدة كان للمسلمين جميعًا يد واحدة، وساد جميع البلاد الإسلامية قانون واحد، وكان المسلمون جميعًا يمثلون أسرة واحدة ينضم إليها كل من يعتنق الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وتصبح له نفس الحقوق التي يتمتع بها المسلمون جميعًا ولا يفضله عنه في الحقوق أحد حتى أبوبكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، وكان كل من ينطق الشهادة ويقول لا إله إلا الله محمد رسول الله حبشيًا كان أم روسيًا، إيرانيًا كان أم قبطيًا ينال نفس المرتبة التي كان ينالها حتى أهل النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يتساوى مع قومه فيما عليه من مسؤليات وما لهم من الحقوق. وجاز له أن ينال أفضل مكانة في المجتمع الإسلامي وفي الدولة الإسلامية بكفاءته الشخصية وصفاته الخلقية.

بعد عهد الخلافة الرشيدة جاء على المسلمين زمان ظهرت فيه بينهم عيوب ومفاسد، إلا أن المجتمع العالمي الذي أسسه الإسلام بقي على حاله ولم يتمكن أحد من زعزعة كيانه، ولا خلاف في أسباب الفرقة والنزاع التي دبت بين المسلمين وكان مردها في معظم الأحيان إلى الخلافات القومية والجنسية. وحلت دول عديدة محل الدولة الإسلامية الواحدة إلا أنه لا خلاف أيضًا في أن من يؤمن بكلمة الإسلام في أي بلد ومن أي جنس مهما كانت لغته ومهما كان لونه هو أخ للمسلم من أي بلد آخر ومن أي جنس حتى لو كان بعد المشرق والمغرب يفصل بينهما. وله ما لسائر المسلمين من حقوق في أي مجتمع كان من المجتمعات الإسلامية. لقد بقيت هذه الفكرة قائمة ومنفذة.

ومن نتائج هذه الفكرة الرائعة التي شهدتها البشرية قرونًا متتالية أن يقوم أحد المسلمين في دخول أي بلد يشاء من بلاد الدولة الإسلامية، من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب دون أن يواجه أية صعوبات أو عقبات وأن يتجول أينما شاء وكيفما شاء، ويمكث في هذه البلاد إلى ما يريد، ويشتغل في أي عمل يحب، ويتقلد أكبر الوظائف الحكومية، ويتزوج بمن أراد لا يقف في طريقه أي عائق أو مانع، والتاريخ الإسلامي حافل بالآلاف من الأمثلة، فهنالك مسلمون خرجوا من بلادهم، تجولوا في البلاد الإسلامية سنوات طويلة، تلقوا العلوم في بلد، وقاموا بالتجارة في بلد آخر، وعينوا في وزارة أو قيادة جيش في بلد ثالث، ومكثوا في الرابع مدة طويلة، وتزوجوا في الخامس، وأبرز مثال على ما قلنا، الرحالة ابن بطوطة الطنجي الذي قضى نحو 27 سنة في عدة بلاد إسلامية، ولم يكن بحاجة طوال هذه الفترة إلى

الحصول على جواز سفر، أو تأشيرة دخول، ولم يسأله أحد عن جنسيته أو هويته، ولم تصادفه مشكلة الكسب أو الرزق، ولم يحصل على إذن بالإقامة، ولم تحدد له فترة الإقامة في أي بلد من البلاد التي دخلها، بل كان إذا أراد عملاً في أي بلد وجده دون صعوبة وخاصة الأعمال الحكومية، لقد وصل ابن بطوطة إلى الهند في عهد السلطان محمد تغلق، وتقلد منصب قاضي القضاة ثم بعثه السلطان سفيرًا له لدى حكومة الصين، أي أنه تقلد حتى المناصب الدبلوماسية.

يتضح من هذا أن الفكرة التي كانت تسود العالم الإسلامي في ذلك الوقت لم تكن هي فكرة الكومنولث (Common Wealth) فقط بل كانت فكرة "المواطنة المشتركة" أو "الأخوة الإسلامية". فقد كان العالم الإسلامي بأسره دارًا للإسلام رغم أنه كان يحكم من قبل عدة حكومات إلا أن هذه الحكومات جميعها كان لها أن تستفيد من الطاقات البشرية المتواجدة في كل مكان في أنحاء العالم الإسلامي، فكل مسلم كان يدين بالولاء والطاعة للحكومة الإسلامية أنى وجدت، وكان يشعر بمسؤوليته في الدفاع عن دار الإسلام والمحافظة عليها من الأعداء. وظل العالم الإسلامي على هذا الحال حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي. والآن! هل يساور الشك أي عاقل في أن الإسلام هو النظام الوحيد الذي يمكنه إقامة عالم إنساني داخل دولة عالمية، إن الدولة العالمية التي طالما حلم بها أهل الفكر والرأي وضع الإسلام أساسها الفكري والعلمي والتطبيقي، وترجم كل هذا إلى واقع ملموس، وتمتعت الدنيا بثمارها اليانعة قرونًا طويلة من الزمان.

الوضع الحالي:

مما يدعو للأسف أن المسلمين في العصر الحاضر تناسوا تراثهم هذا، وتناسوا ما له من أهمية وقيمة عظيمة وحين زحفت البلاد الغربية نحو البلاد الإسلامية وتوالت على البلد تلو الآخر، انهزم المسلمون أمام سيوفها أولا ثم استسلموا بعد ذلك لثقافتها وحضارتها وفلسفتها فما لم يستطع سيفها إنجازه أكملته فلسفتها، ولم تجرّ على العالم الإسلامي سيطرتها السياسية ما جرَّه عليه غزوها الحضاري والفكري من البليات والمصائب. فالسيطرة السياسية كانت تتحكم في الأجساد فقط، أما السيطرة الحضارية والفكرية فقد تحكمت في العقول والأذهان فبدأ المسلمون ينادون هم أيضًا بالقومية التي لم يكونوا يعرفونها حتى القرن التاسع عشر الميلادي، وهم لم يتعلموا نظرية القومية فحسب، بل تعلموا أيضًا العصبية القومية ونتج عن هذا أن تخلى المسلمون من مختلف الجنسيات والبلاد عن رابطة الأخوة الإسلامية العالمية إلى حد كبير، وشجعت سياسة الحكومات الاستعمارية هذا الأمر كل التشجيع. وانقطع

كل مسلم لوطنه ولبني أمته، وتقلصت دائرة حقوقه إلى نطاق بلده فقط وأصبحت بقية الدول الإسلامية دولا أجنبية بالنسبة له، شأنها في ذلك شأن أية دولة أجنبية أخرى في أوربا أو أمريكا، وقطع المسلمون طريق الوحدة الإسلامية بأيديهم لأول مرة في تاريخهم، وتلقت الأمة، التي كانت أبعد ما تكون عن العصبيات القومية والتي قال عنها عزوجل: ژٹ ٹ ڎ ڎ ٹژ(8)، درس القومية من المعلمين الكفرة ثم نهضت لتفكك وحدتها العلمية التي كانت قد نالتها بفضل الإسلام دونما مجهود أو تعب، مع أن غيرها لا يستطيع الحصول على هذه الوحدة ولو بملء الأرض ذهبًا ژ ٹ ٿ ٿ ٹ ٹ ڈ ڈ ڤ ڤ ڦ ڦ ڤ ڤ ڦژ(9). وكان أهل العرب قد واصلوا جهودهم لتمزيق وحدة المسلمين وفصم عراها، واستمروا في تلقينهم دروس القومية إلى أن ذاقوا وبال هذا التعليم أول مرة خلال الحرب العالمية الأولى حين ثار بعض المسلمين على بعض في وقت كان فيه الأخير يدخل معركة ضد الأعداء، أعداء المسلمين جميعًا، والخطأ لا يقع على واحد دون آخر بل هو خطأ يقع على كليهما، فقد تلقى أحدهما درس القومية الطورانية من الأساتذة الغربيين بينما تلقى الآخر درس القومية العربية من نفس الأساتذة، أي أن كليهما تتلمذ على يد معلم واحد، فخلا من قلبيهما ما كان بينهما من مشاعر وبدد ما بداخلهما من أواصر المحبة والأخوة، لقد تناسى الأتراك أن الدولة التي يملكون زمامها تحمل شعار الخلافة الإسلامية، ولا يعيش فيها الجنس الطوراني وحده بل يعيش فيها العرب كذلك الذين لا يدينون بالولاء إلا للإسلام وحده، وليس بإمكانهم أن يدينوا بالولاء للقومية الطورانية. كما أن العرب تناسوا أن من يشهر سلاحه في وجه الترك وأن من أعطاهم الوعود المعسولة هم كفار يحاربون إخوانهم من المسلمين، ولم ينتبهوا إلى أن هذه الوعود التي اشترطت عليهم محاربة إخوانهم المسلمين ما هي إلا حلقة مستحدثة من الاستعباد يضعونها في عنقهم بأيديهم طائعين فرحين. إلا أن جنون القومية كان قد بلغ مداه لدى الطرفين فحارب المسلم أخاه حربًا لا هوادة فيها. ونتج عن هذا تمزق الدولة العثمانية إلى أجزاء متناثرة فاستحال على الأتراك بعد ذلك المحافظة على استقلال وطنهم، وحين نجحوا في ذلك بشق الأنفس بادروا بإلغاء الخلافة التي كانوا قد توارثوها من قرون على علاتها، ثم قطعوا بعد ذلك علاقة الإسلام بالدولة، واستبدلوا الحروف العربية بالحروف اللاتينية، ومزقوا كل ما كان يربطهم بالعالم الإسلامي من أواصر وروابط.

ومن ناحية أخرى لم ينل العرب الاستقلال الذي كانوا يحلمون به، وأصبحوا من أجله أداة

8- سورة آل عمران، الآية: 110.

9- سورة الأنفال، الآية: 63.

طيعة في يد أعداء الإسلام، فقد استولى الإنجليز على العراق، وفرضت فرنسا حكمها على سوريا ولبنان ووضعت فلسطين تحت انتداب الإنجليز الذين مهدوا السبيل لإعطائها لليهود. هذا ما تكبده العالم الإسلامي من أضرار القومية خلال الحرب العالمية الأولى.

بعد الحرب العالمية الثانية فإن الكثير من الشعوب الإسلامية نالت الاستقلال بفضل من الله ورعايته بعد أن ظلت ترزخ تحت نير الاستعباد مدة طويلة، إن وجود هذه الشعوب في صورة دول مستقلة قد تكون ضرورة تاريخية لا نقدر عليها، إلا أن المؤسف حقًا هو أن جميع هذه الدول تتبع نفس أفكار القومية والتعصب القومي التي تلقتها عن أساتذة الغرب.

ولا يريد مسلمو اليوم إدراك وتفهم النظريات الإسلامية الخاصة بالقومية الإسلامية الموحدة والجنسية الإسلامية المشتركة ونظرية الكومنولث الإسلامي، فهي في الواقع نظريات تبلغ من العلو قمة لا يصل إليها مستوى تفكيرهم اليوم. والعجيب والمحير أنهم لا يريدون الاعتراف اليوم بأن هناك رابطة من شأنها أن تربطهم بعضهم ببعض بأقوى رباط، ألا وهي رابطة الإسلام فهي رابطة من شأنها أن تجعل من بعضهم لبعض مناصرًا ومساندا إذا اشتكى منهم أحد تداعى له الجميع بالألم، ومن شأنها أن تفتح أمامهم الطريق إلى التعاضد والتعاون من أجل التقدم المادي، ومن شأنها أيضًا أن تجعل من بعضهم صديقًا للبعض يعاونه في الدفاع عن حوضه إذا دعت الظروف، لقد تناسى المسلمون كل ذلك، ولا تزال فكرة القومية تسيطر على عقولهم حتى اليوم لدرجة أنهم لا ينظرون إلى المسلمين خارج بلدهم إلا بالعين التي ينظرون بها إلى الأجانب من غير المسلمين.

بل لم تعد أية دولة تمانع في أن تشن هجومًا على دولة مسلمة أخرى لتحقيق مصالحها القومية، ولا تتوانى في توثيق أواصر الصداقة مع ألد أعداء دولة مسلمة أخرى، وهي تشاهد بلدًا إسلاميًا يعاني أهله الظلم والإرهاب والعدوان والاضطهاد ولا تحرك ساكنًا من أجل مساعدته ومع أن جميع الدول الإسلامية مهددة بخطر حدوث اشتباكات عنيفة بين القوى العالمية في منطقتها، خطر قد يؤدي إلى القضاء على استقلالها دولة بعد الأخرى إلا أن هذا الخطر المرتقب لا يلم شملها ولا يقرب بعضها من البعض وهذا من أعجب العجائب.

الوحدة الإسلامية بين التأييد والرفض:

واليوم نستبشر خيرًا وسط هذه الظروف الحالكة، إذ يلتقي ملوك ورؤساء الدولة الإسلامية ليتدارسوا القضايا المشتركة التي تهم العالم الإسلامي ليجدوا لها حلولا وليخلقوا جوًا من التعاون فيما

بينهم لحل هذه القضايا[10] ومن الجدير بالذكر أن بعض من يزعم قيادة المسلمين يحارب في الوقت نفسه قيام وحدة على أسس إسلامية، ومن العجيب أن من يقول هذا يحمل في نفس الوقت شعار التضامن الاشتراكي، وكأن التضامن على أساس الرابطة الاشتراكية أمر مباح ومطلوب بينما التضامن على أساس الرابطة الإسلامية حرام ومرفوض، ومعنى هذا أنه لا اعتراض على قيام رابطة تجمع هذه الشعوب المسلمة شريطة ألا تكون هذه الرابطة، هي رابطة الإسلام، فالاعتراض واضح وصريح، فلو قامت هذه الرابطة بين البلاد على أساس ماركسي لأصبحت مقبولة، هذا هو سحر أساتذة الغرب الذي علموه لتلاميذهم من المسلمين، وهو سحر قوي لا يزال ساري المفعول حتى بعد أن حصل هؤلاء التلاميذ على استقلالهم السياسي. والأساتذة لهم الحق في أن يجتمعوا أو يتضامنوا ويتحدوا على أسس العصبية المسيحية، ويواجهوا المسلمين بألوان عديدة من الظلم والعدوان، والتلاميذ تلقوا من الأساتذة درسًا مفاده أن التمسك بالإسلام رجعية وتخلف ومن هنا لم يحاولوا أن تلصق بهم تهمة الرجعية أمام أساتذتهم.

إن جميع الاعتراضات التي أثيرت حول اللقاءات الإسلامية على مستوى القمة تبرهن على أن تفكير زعماء الشعوب الإسلامية وحكامها تناهت في التعقيد والغموض، وهم لا يريدون أن يفهموا الحقائق بطريقة مستقيمة وواضحة، وإلا فما هي المبررات التي دعت لإقامة العراقيل في وجه إقامة الوحدة الإسلامية ما دامت هناك منظمات عديدة تقوم على التضامن والتكتل من أجل الدفاع عن مصالحها، فالكومنولث البريطاني يضم على سبيل المثال عددًا من الدول التي لا تربطها أية رابطة سوى رابطة الخضوع للاستعمار الإنجليزي الذي سبق أن رزخت تحت سيطرته هذه الدول، فلا حضارة توحدها، ولا لغة تجمع بينها، ولا مصالح اقتصادية تربط بينها، ولا علاقة جغرافية توحد بينها ورغم كل هذا لا يعترض أحد على وجود هذه المنظمة، وفي أفريقيا منظمة تعرف باسم منظمة الشعوب الأفريقية لا يجمع بينها إلا اللون[11] فقط والدفاع عن مصلحة السود ضد اعتداءات البيض، ويشترك في هذه المنظمة حتى أولئك الذين يحاربون فكرة توحيد الدول الإسلامية، وكذلك يوجد تحالف بين الدول الاشتراكية في شكل ميثاق يعرف باسم "وارسو" واتحاد بين حكومات قارة أمريكا، ولم يعترض أحد على كل هذه المنظمات ولم يقف أحد لمحاربة هذه الاتحادات. ونتساءل الآن! إذا أرادت الشعوب المسلمة تكوين وحدة أو إقامة تضامن فيما بينها فلمن حق الاعتراض؟ وعلى أي مبدأ أو أساس أو أية نظرية أو فلسفة تبيح له

10- كتب الأستاذ المودودي هذه الصفحات زمان المؤتمر الإسلامي بلاهور، أوائل سنة 1974م.

11- حتى اللون ليس عاملا مشتركا في كل الحالات فهناك دول عديدة في المنظمة لا يسكنها السود ـ (التحرير).

المعارضة؟

إن الشعوب الإسلامية متآخمة الحدود من باكستان شرقًا إلى المغرب الأقصى غربًا، وإذا لم نعتبر البحر مانعًا طبيعيًا فإن إندونيسيا وماليزيا تشارك العالم الإسلامي في التلاحم الجغرافي، فهذه الشعوب لا تربطها رابطة العقيدة الدين فحسب، بل توثق بينهما مقومات الحضارة والمدنية.

وإذا سافر أحد المسلمين من أندونيسيا إلى المغرب، يبدو له جليًا أن المنطقة بأكملها تسودها حضارة مشتركة، ومبادئ مشتركة، ففي كل بلد نزوره داخل المنطقة الإسلامية نتأكد بمجرد أن تبلغ آذاننا صوت المؤذن أن هذا بلد يسكنه المسلمون، ولا بد أن يكون لهم فيه مسجد ونشعر كأننا من أعضاء أسرة هذا البلد وإذا شاركنا في الصلاة مع أهل هذا البلد فلن يظن أحدهم أننا أجانب وإذا علموا بوجودنا، وعرفوا أننا جئنا من بلد إسلامي آخر هرعوا إلينا يصافحوننا ويعانقوننا، وربما لا نفهم لغتهم إلا أن التحية الإسلامية مشتركة بيننا، كما أن لغة الخطبة في الصلاة ليست غريبة علينا، وكذلك كلمات مثل "الحمد لله" و "رب العالمين" و "الله" وما إلى ذلك مشتركة بيننا، وأركان الصلاة موجودة من أندونيسيا حتى المغرب، لا يمنع أهل أي بلد ـ إن أرادوا ـ أن يجعلوا منا إماماً لهم في الصلاة ولا يمنعنا شيء إذا صلينا خلف إمامهم، وإذا خرجنا من المسجد ودخلنا نطاق المجتمع شعرنا ـ أينما ذهبنا ـ أن هناك رابطة متينة تربط بيننا وتجمعنا معًا وهي رابطة الحضارة والثقافة، وإذا أكلنا مع أهل هذا البلد فنحن نأكل بقلوب مطمئنة فما هو محرم عندي محرم عندهم وهم يلتزمون بقواعد الطهارة والنظافة التي نلتزم بها في حياتنا العامة، وعادة ما يقبل علينا أهل البلاد عامتهم وخاصتهم يسألوننا عن أحوال إخوانهم المسلمين في بلدنا وكأنهم أفراد عائلة واحدة نتدارس أحوالهم، فإذا بشرناهم بخير الأحوال حمدوا الله تعالى وتلألأت وجوههم بهجة، وإذا أخبرتهم بسوء الأحوال، يداهمهم الحزن والأسى كأحد أبناء بلدى ... ليس هذا فحسب بل إن قوانين الأحوال الشخصية من النكاح والطلاق والمواريث المطبقة في جميع البلاد الإسلامية تتشابه وتتقارب إلى حد أنه لا يصعب على المسلمين أن يتزاوجوا فيما بينهم، هذا الوضع لا نشاهده في بلد لا تقطنه الشعوب غير الإسلامية أبدًا، ومعنى ذلك أن الروابط التي تربطنا معشر المسلمين روابط متينة تجعل منا شعبًا واحدًا يحمل عاطفة واحدة ومشاعر متحدة حتى في عصر بلغ فيه جنون القومية مداه وازداد التمييز العنصري.

ألا يدعو كل هذا إلى ضرورة التقارب والتعامل لحل قضايانا المشتركة، ولمساندة بعضنا بعضا

لبلوغ مدارج الرقي والتقدم والازدهار؟ ألا يساعد موقع البلاد الإسلامية الجغرافي في إقامة الوحدة الإسلامية؟ فهذا الموقع يحتم على الدول الإسلامية الدخول في أي صراع بين صراعات الدول الكبرى بمفردها، إنها ضرورة تشبه تلك التي فرضت على شعوب أفريقيا إقامة منظمتهم الأفريقية منعًا للعدوان الاستعماري، وإذا كان اللون والموقع الجغرافي ووحدة المصالح هي الأساس الذي أقامت عليه الشعوب الأفريقية منظمتها فلماذا لا يعد تضامن العالم الإسلامي لهدف مشترك أمرًا مشروعًا ومنطقيًا، علمًا بأن هذا التضامن قائم على صلات أقوى ومقومات أقوى وقواعد أمتن مما هو عليه في التضامن الأفريقي وغيره من التحالفات الأخرى، ولماذا تثار زوبعة الاعتراضات دائمًا في وجه إقامة الوحدة الإسلامية؟

ويحق لنا أن نسأل معارضي فكرة الوحدة الإسلامية إذا كان التعصب الديني هو الذي يدفع الأمم الغربية لضرب المسلمين واضطهادهم والاعتداء عليهم فلماذا لا يتحد ويتضامن أولئك المسلمون الذين يصيبهم الأذى كل يوم من جراء تعصب هذه الأمم الغربية؟ فالأمم الغربية لم تنس حتى اليوم الروح الصليبية التي لا تزال تتغلغل في نفوسها منذ أعلنت هذه الحروب، أما نحن فمهما تعلمنا درس التسامح الديني ومهما حاولنا القضاء على حميتنا الدينية وغيرتنا الإسلامية فلن نجد لنا مكانًا محترمًا لدى هذه الأمم الغربية التي لا يمكنها أن تعفو عن جريمة كوننا مسلمين، ولن تتورع عن إيذائنا والاعتداء علينا، إن هذه الأمم الغربية لا تقتصر على شن العدوان علينا بل تناصر غير المسلمين وإن كان ظالما وتظلم المسلم وإن كان صاحب حق، وهذا ما نشاهده فيما يتعلق بالقضايا الدولية التي يكون أحد أطرافها من المسلمين. ألا يعرف الجميع أن قول اللورد اللنبي بعد احتلال فلسطين أثناء الحرب العالمية الأولى بعد دخوله القدس، "الآن فقط انتهت الحروب الصليبية" يعبر عن اتجاهات هؤلاء الغربيين المتعصبين، لقد وقف هذا اللورد على قبر البطل صلاح الدين الأيوبي وقال: "ها قد عدنا يا صلاح الدين".

وبعدها بدأ مخطط إبعاد المسلمين من فلسطين لإسكان أمة أخرى تجمع أشتاتها من بقاع العالم المختلفة، ونتساءل: لو تم هذا الاعتداء على أمة غير مسلمة، هل كانت أمريكا وأوربا تقف صامتة لا تبالي كما هو الحال بالنسبة لموقفهما تجاه المسلمين في فلسطين؟

وفي شبه القارة، قدمت كشمير وهي منطقة الأغلبية المسلمة إلى الهند طبقًا لخطة خبيثة، ومن ذلك الحين والأغلبية المسلمة فيها تقاسي وتعاني أشد أنواع الإرهاب والعذاب، وما جادت عين أهل أمريكا وأوربا ولا بدمعة واحدة أسفًا عليهم، تلك العين التي لا تفتر عن البكاء على المجر رغم أن ما يحدث في كشمير لا يقل بحال من الأحوال عما يحدث في المجر بل يفوقها كثيرًا. ومأساة أرتيريا لا تقل

فظاعة عن مأساة كشمير وفلسطين إذ أهدتها الدول الكبرى لقمة سائغة لحكومة الحبشة المسيحية التي لاتزال ترتكب ضد الشعب الأرتيري المسلم المكافح في سبيل الاستقلال جرائم وحشية يعجز القلم على تسطيرها[12].

وينطبق الحال على قضية قبرص وما يعانيه الأتراك على أيدي اليونانيين، فعطف الغرب موجه إلى اليونانيين فقط لا لشيء إلا لكون الظالم مسيحيا والمظلوم مسلمًا، وزاد الطين بلة أن أمريكا لم تضع في اعتباراتها علاقاتها الودية مع تركيا.

وما قامت به بريطانيا وفرنسا وبلجيكا والبرتغال وغيرها من البلاد المسيحية ضد المسلمين في القارة الأفريقية لا مثيل له في تاريخ التعصب الديني فقد أبيدت حضارتهم الزاهرة، وتحطمت قوتهم الاقتصادية، وحرموا من التعليم والثقافة، فلا يتعلم أحد إلا إذا اعتنق المسيحية أو استبدل اسمه الإسلامي باسم مسيحي على الأقل، ومجالات العمل في الجيش والهيئات المدنية مقصورة على المسيحيين فقط، والنتيجة واضحة أمام أعين الجميع فالدول الأفريقية التي نالت استقلالها تتكون معظمها من الأغلبية الإسلامية إلا أن الحكم فيها بيد المسيحيين، وإذا حدث أن تولى أمر أحدها حاكم مسلم فيكون دائمًا مغلوبًا على أمره، يكاد الحكم ينفلت من يده لما للمسيحيين في الجيش والهيئات المدنية من نفوذ[13].

والسؤال الذي يفرض نفسه الآن هو: ماذا يضير المسلمون الذين قاسوا ألوان العذاب من جراء التعصب الديني الغربي، ماذا يضيرهم لو اتحدوا معًا وتضامنوا معًا من أجل الحفاظ على كيانهم، من أجل الحفاظ على حضارتهم وعلى اقتصادهم؟ وأيهما أقبح يا ترى؟ تضامن المعتدين على مبدأ شن العدوان أم تضامن المظلومين المعتدى عليهم على مبدأ رد العدوان؟ لكل ما تقدم تأخذني الدهشة من موقف المعارضين لدعوة التضامن الإسلامي الذين يعتبرون الوحدة القائمة على أساس الدين خطأ لا يغتفر، بينما الوحدة الاشتراكية في نظرهم صحيحة كل الصحة، والوحدة على أساس اللون صحيحة كل الصحة، والعيب كل العيب ـ في رأيهم ـ هو إقامة وحدة باسم الله وعلى أساس دين الله ... أنا لا أكاد أفهم هذا المنطق الغريب.

كل أملي هو ألا نكتفي بالتعاون لحل قضايانا الدينية والثقافية والاقتصادية، وتوحيد وسائل

12- هذه أحوال مضت على تلك البلاد قبل كتابة هذا المقال.

13- لقد تم القضاء على عيدي أمين بخطة أعدت في فرنسا كما أعلن فيما بعد من قبل الجهات الفرنسية.

التقدم المادي وتنميتها فحسب، بل علينا أن نتعاون كذلك في سبيل تنمية الوسائل الدفاعية بالجهود المشتركة، وأقل ما يجب تحقيقه في هذا المجال هو أن تهتم الدول الإسلامية بإقامة الأسلحة الحربية حتى تستغني عن استيرادها واستجدائها سواء من روسيا أو أمريكا أو غيرهما.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين"[14].

****

14- لقد أخذنا هذا المقال للشيخ أبي الأعلى المودودي رحمه الله من: سمير عبد الحميد إبراهيم، **الطريق إلى وحدة الأمة الإسلامية**: أبو الأعلى المودودي مقارنة بفكر الشاعر محمد إقبال، دار الأنصار، القاهرة.